

□ اللسان ذاك المطواع

بيود إنعام

- قسم الترجمة - جامعة الجزائر

تمهيد :

هذه المداخلة المتواضعة هي محاولة لصياغة تساؤلات ما فتئت تراودني طوال تجربتي في الترجمة، و طرحي إيّاها اليوم أمام هذا الجمع الموقر ليس إلا " فضفضة " أكثر منها بحثاً في الترجمة، و قصدي من وراء هذا الطرح هو أن تشاطروني بعضاً من الانشغالات النظرية التي قد تبدو بديهية، و التي لم يسمح لي استغراقي في المهنة أن أسبر مكامن حلكتها. أمل أن أستمير بملاحظتكم و تعليقاتكم.

علاقة المترجم باللغة :

أود أتطرق في البداية إلى العلاقة التي يبينها كل فرد مع لغته الأم و مع لسانه الخاص. أقول لسانه الخاص لأنه ضمن لغة أم واحدة قد تتسج، من بين أشياء أخرى، حساسيات متناهية حسب البيئة و الوسط الاجتماعي و الثقافة و الذوق و الرهافة الحسية. و العلاقة التي يبينها المترجم مع لغته هي علاقة في منتهى الخصوصية، لأنها علاقة واعية و ناقدة و مقارنة في آن. واعية لكونها تخرج في إطار التحقيق العفوي الذي يمليه و حي الخاطر، و تتحكم فيها ردود فعل ظرفية تخفي افتراضات مسبقة غير

معلنة، إذ غالبا ما يكون الأفراد يجهلون فعلاً الافتراضات المسبقة التي تكيف استجاباتهم اللسانية للوضعيات غير اللسانية المختلفة التي يعيشونها، و ناقدة لكونه - أي المترجم - دائم الغوص في غياهب هذه اللغة و استشرافاتها، يرصد أدنى هفواتها و زلاتها و يسجل بفخر مكانن تفوقها و الامكانيات الابداعية التي تتيحها، و مقارنة لأنه بامتلاكه لخاصية لغة الآخر لا يفتأ يقوم بمقارنات بين لغة الأصل و لغة الوصل - و هما المصطلحان اللذان يروق لي استعمالهما بدل مصطلحي " اللغة الأصلية " و " اللغة المستهدفة " - تؤدي به، في بعض الأحيان ، إلى إضفاء نقفٍ من التحويلات الأسلوبية على لغته الأصلية التي غالبا ما يترجم إليها. إن هذه العلاقة مهما كان نوعها مرتبطة بعاملتي الزمان و المكان، و هما عاملان شديدا التأثير على تحقيقاته اللسانية من حيث أنهما يشكلان المحددان الرئيسيان، بالإضافة إلى شخصه، لنوعية هذه العلاقة. إذن هذه العلاقة يتألف من : الفاعل - المترجم - ، مكانه و زمانه.

اللغة في عالم متحول :

إن العلم المادي في تحول مستمر، و هذا التحول يؤثر على نتائج الفكر و بشكل خاص على اللغة. اللغات تشيخ، و الديكورات تتبدل، و الإشارات تتمحي، و البديهيات تضيع، و التآلفات يطويها النسيان، و المسكوت عنه يؤول إلى الموت من شدة السكوت عنه، و يفقد الصمت مع الزمن إفحامه، لذا فمن المفروغ منه أن دراسة أي ظاهرة لسانية و منها الترجمة ينبغي أن تتم في إطار العلاقة الثلاثية الأنفة الذكر.

مفهوم الإطار

الإطار، في هذا السياق، هو مجموعة من المعطيات الأولية التي تعين الحدود التي تتدرج ضمنها وضعية مفترضة مع فاعليها المفترضين بالإضافة إلى الزمان و المكان. و يمكنه أيضاً أن يأخذ شكل إشكالية ما أو صعوبة معينة في ترجمة نص ما. كما أنه الفضاء الذي يسمح لنا بدراسة كل حيثيات العملية الترجمية لنص معين. آخذين بعين الاعتبار، من جهة، تكوين المترجم و ثقافته و تعامله مع النص و كاتبه و حتى مزاجه ساعة القيام بالترجمة، و جملة من الافتراضات المسبقة غير المعلنة و المتوارية بين السطور (مثال : ترجمة ميخائيل نعيمة لكتاب " النبي " التي تبرز فيها بوضوح محاولة المترجم - غير الواعية أحياناً - إلى البروز و التعتيم على الكاتب من خلال بعض الإضافات المتكلفة و الإغفالات المتعمدة)، و كذلك مختلف الظروف الزمكانية المحيطة ببرهة الترجمة، من جهة أخرى.

مفهوم إعادة التأطير :

سنحت لي الفرصة مؤخراً أن أطلع على كتاب

" Change, Principles of Problem Formation and Problem

Resolution " لمؤلفه Paul Watzlawick الرائد الحالي لمدرسة Palo

Alto لجامعة ستانفورد (كاليفورنيا) يعرف الكاتب إعادة التأطير على

أنها " منظور جديد لرؤية أو تحليل شيء ما. إعادة التأطير تعني إذن

تحويل للإطار المفهومي و/ أو الانفعالي لوضعية ما، أو وجهة النظر التي

تمت من خلالها معاشتها، عن طريق وضعها في إطار آخر يتطابق تماماً أو حتى بشكل أفضل مع " وقائع هذه الوضعية الملموسة التي يتغير من جراء ذلك معناها كلية". و عندما يتحدث فانتسلافيك عن "معاشة" فإنه يعطي الأفضلية للفاعل في الوضعية المعنية، كما أنه من خلال تركيزه على هذا الفاعل يكشف النقاب عن كم هائل من الافتراضات المسبقة التي تكون بالفعل إحدى الإشكاليات الأكثر تعقيداً بالنسبة للفاعل. و الافتراضات المسبقة هي كل المعطيات غير المجهورة و غير المُفصحة و غير المُصاغة أو حتى اللاشعورية التي تتدخل في تحديد عناصر المعنى و الرؤية و التحليل بالنسبة للفاعل. كما قال جلال الدين الرومي : " إذا كان الجواب دون كلام، فمعناه أن السؤال كان دون كلام."

ثم يخلص Watzlawick إلى القول بأنّ " ما نحدثه من تحوير عندما نعيد التأطير يطرأ على المعنى المعطى للوضعية - أي المغزل الكلي و الشخصي للوضعية المعنية -، و ليس على العناصر الملموسة. " و ينهي تعريفه بذكر مقولة للفيلسوف الإغريقي أبيقور Epictète : " ليست الأشياء هي ما يحير الناس، بل نظرتهم إليها."

" Ce ne sont pas les choses qui troublent les hommes, mais l'opinion qu'ils en ont."

الترجمة : هل هي إعادة تأطير ؟

قد لا تبدو هناك علاقة ظاهرة بين الكلام و بين الترجمة. لكنني عندما قرأته بدت لي هذه العلاقة واضحة كعين الشمس. أليست الترجمة أساساً عبارة عن إعادة تأطير ؟ تحوير يطرأ على الإطار الأول الذي هو النص

الأصلي دون أن يمس ذلك عناصره الملموسة المتمثلة في معاني الوحدات المعجمية المكونة لذاك النص ؟ تدخل فيه كل الافتراضات المسبقة التي يختزنها الفاعل - المترجم و ينثرها شذراً بين سطور ترجمته ؟
لطالما ساورني تساؤل مهموز : ما الذي يجعل نصاً بلغة ما قابلاً للترجمة عدة مرات إلى نفس اللغة، بشكل لامتناه تقريبا ؟ لا أعتقد أن الأمر يتعلق بمجرد اختيارات تتيحها بسخاء إجبارات لغة الوصل. بل من المحتمل أن يتعلق بوجود عوامل أخرى لها صلة مباشرة بالمترجم و بكل الظروف الآتية و العرضية التي تلف لحظة الترجمة. و قد عشت شخصياً أثناء تدريسي للترجمة، تجربة القيام بترجمة نفس النص، في نفس اليوم، مع أفواج مختلفة بترجمات مختلفة. فالجو العام و ردود فعل الطلبة، تجاوبهم أو بقائهم كمتلقين سلبيين، و مزاجي الخاص، و حتى إشارات خارجية، كسماع أصوات خارج القسم أو مقطعات كلام لعابر سبيل، تؤثر على إنتاج الترجمة، بحيث تلعب كل هذه العوامل دور المحفز أو المثبط، وفق معايير أجهلها تماماً، قد تكون استجابات لافتراضات مسبقة.

لقد افترضت " باسنيث ماك غواير " في كتابها : " Translation Studies " أننا لو طلبنا من إثني عشر مترجم ترجمة قصيدة ما إلى لغتهم لتحصلنا على إثني عشر قصيدة. إذا أضفنا افتراضاً آخر و هو إعطاء نفس القصيدة إلى مترجمين متواجدين في أمكنة و أزمنة مختلفة فلسوف نتحصل أيضاً على ترجمات بعدد المترجمين. لكن تحليل ترجمات الفئة الأولى و الثانية يعطينا مؤشرات متباينة، خاصة إذا استعملنا مبدأ " تحليل المكونات "Componential Analysis"، الذي وضعه منظر

الترجمة البريطاني Peter Newmark ، و يمكن صياغته حسب الفرضيات التي نود البرهنة عليها، إن كانت فرضيات تاريخية أو انفعالية أو معجمية أو أسلوبية إلخ.

L'écrivain et son traducteur لكتاب مطالعتي
الصادر عن دار النشر السويسرية ZOE، 1998، على مبحث يتناول قصيدة لـ Rilke باللغة الألمانية ، تتألف من أربع أبيات، كتبت عام 1923، و ترجماتها إلى اللغة الفرنسية التي يصل عددها إلى 12 ترجمة. رتبت هذه الترجمات حسب التسلسل الزمني لانجازها.

أولها في عام 1941، و آخرها في عام 1996. تقول الأبيات :

Ist es nicht Zeit, dass wir liebend
uns vom Geliebten befreien und es bebend bestehn :
wie der Pfeil die Sehen besteht, um gesammelt im Absprung
mehr zu sein als er selbst. Denn Bleiben ist nirgends.
(Rilke, Duineser Elegnds, 1923)

الملاحظة الأولى التي تتبادر إلى الأذهان هي أن كل الترجمات تقريبا مختلفة من حيث الصياغة و اختيار التعابير ما عدا الجملة الأولى من القصيدة : Ist es nicht Zeit التي ترجمها الجميع بـ : N'est-il pas : temps باستثناء مترجم واحد فضل استعمال صيغة النفي الأدبية : N'est-il point le temps. (1991)

و إذا ما أخذنا الجملة الأخيرة، فإننا نجد تباينات جذيرة بالتوقف عندها :

- Car nulle part il n'est d'arrêt. 1941
Car il n'est de demeure nulle part. 1949
Car demeure, cela n'existe nulle part. 1958
Car il n'est de repos nulle part. 1972
Car rester n'est nulle part. 1989
Car il n'est rien qui demeure, rien nulle part. 1991
Car l'immobilité n'est nulle part rencontrée. 1994
Car il n'est rien nulle par qui demeure. 1994
Car demeurer ne se trouve nulle part. 1996

و من المثير للانتباه فعلا أساليب الترجمة المختلفة التي لجأ إليها المترجمون كلٌ لتحقيق تأثير معين على القارئ أو اعتباراً منه بتطابق هذا التأثير مع غرض الشاعر. و الأكثر احتمالاً أن الأمر لا يعدو من طرفهم جميعاً مجرد تأويل ذاتي و معاشة خاصة لذلك النص. و للحديث شجون

...